مسجد مدينة باجة (ميرتولا) في البرتغال

MESQUITA DE BEJA

(IGREJA MATRIZ DE MÉRTOLA)

ايمان سفاح كوري

أ . د . رفاه جاسم حمادي

كلية الاداب / جامعة بغداد

قسم الآثار

مسجد مدينة باجة (ميرتولا) في البرتغال

ايمان سفاح كوري

أ . د . رفاه جاسم حمادي

مقدمة عن تاريخ بناء المسجد

تعد مدينة باجة أقدم مدن الأندلس بنياناً وأولها اختطاطاً وإليها انتهى يوليش جاشر وهو أول من تسمى قيصر وهو سماها باجة، وتفسير باجة في كلام العجم الصلح، وحوز باجة وخطتها واسعة ولها معاقل موصوفة بالمنعة والحصانة وتعد باجة من أقدم مدائن الاندلس لأنها بنيت في أيام الأقاصرة، وبينها وبين قرطبة مائة فرسخ، وهي من الكور المجندة نزلها جند مصر وكان لواؤهم في الميسرة بعد جند فلسطين،[١] اما مسجدها فيقع في حصن مارتلة وهو حصن منيع ومنه إلى طليطلة مرحلة ويقع على نهر بطليوس[٢] بجزيرة الأندلس ومارتلة حالياً مدينة صغيرة في جنوب البرتغال.[٣] مِيرْتُلَةُ او مارتلة حصن من أعمال باجة وهو أحمى حصون المغرب وأمنعها من الأبنية القديمة على نهر آنا[٤] حصن منيع ومنه إلى طليطلة مرحلة[٥]، خارطة(١) كما اشار اليه ابن عذارى المراكشي في احداث سنة ٢٦٢هـ " عبد الملك بن أبي الجواد، اقتعد مدينة باجة وملكها، وتحصن بحصن مارتلة، وله حظ من المنعة تشييدا وعدة. وكان معاقدا لابن مروان، صاحب بطليوس في هذا التأريخ، وابن بكر صاحب أكشونبة؛ فكانوا متأبين على من خالفهم. وعبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، اقتعد مدينتي بطليوس وماردة قد ابتنى في بطليوس حصنا"[٦] وعبد الملك هذا موالي لابن مروان الذي بنى مدينة بطليوس وبنى مسجداً داخل الحصن وفقاً لرواية الحميري حيث يذكر" بطليوس بالأندلس من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلاً، وهي حديثة بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليتي بإذن الأمير عبد الله له في ذلك، فأنفذ له جملة من البناة وقطعة من المال فشرع في بناء الجامع باللبن والطابية وبنى صومعته خاصة بالحجر واتخذ مقصورة وبنى مسجداً خاصاً بداخل الحصن وابتنى الحمام الذي على باب المدينة وأقام البناة عنده حتى ابتنوا له عدة مساجد، وكان سور

بطليوس مبنياً بالتراب، وهو اليوم مبني بالكلس والجندل وبني، في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة"[٧]، ولاسيما انه اتخذ من مدينة باجة مقراً لحكمه وتحصن في مارتلة وحسب رواية ابن عذارى السابقة الذكر وبناءاً عليه يمكن القول ان المسجد المقصود بمسجد مارتلة هو احد تلك المساجد التي بناها ابن مروان قبل سنة ٢٦٢هـ. خارطة (٢)

بينما يحدّد باحثون مثل ليوبولدو توريس بالباس Leopoldo Torres Balbás [٨] وكريستيان إيويرتChristian Ewert [٩] تاريخ بناء الجامع في هذه المرحلة دخول الموحّدين للمدينة في سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، ميرطولا Mértola، اليوم مدينة صغيرة في جنوب البرتغال ، في مقاطعة ألينتيخو Alentejo، تقع على بعد ٥٢ كم. جنوب باجة Beja ، عند ملتقى غواديانا,Guadiana، التي تبعد بمقدار ٥٥ كم بعيدا باتجاه جنوب شرق المحيط الأطلسي ، وكان نهر اورياس الصغير Ojeras، مع منطقة جوليا مارتاليس Julia Myrtilis كانا يشكلان مكانا هاما لمقاطعة لوسيتان الرومانية[١٠] اما المسجد تم تحويله الى كنيسة سنة ١٢٣٨م سميت Igreja Matriz de Mértola (الكنيسة الام) ولكنه بقي محتفظاً بالعديد من عناصره العمارية وحتى دكة المذبح الرئيسي تتجه إلى الجدار الجنوبي الشرقي وهو اتجاه القبلة في مسجد الاسلام ويتم استخدام بعض اعمدة المنقولة من معبد روماني[١١]. وقد تم المحافظة على الجدران الخارجية للمبنى من هذا المسجد القديم و أبوابه الأربعة.

تخطيط وعمارة المسجد

شكل المسجد شبه منحرف (انظر مخطط١)، طول جدار القبلة ١٩,٠٦ م الجدار المقابل له ١٨,١٣م الجانب الشمالي الغربي ١٥,٩٢م والجدار الجنوبي الغربي١٣,٥ م وقد ادى هذا الانحراف البسيط والبناء غير الدقيق للقبلة ، والذي لم يكن مستقيماً تقاطع الزاوية اليمنى للجدارين الجانبيين مع جدار القبلة هذا. تسبب بأنحراف قليل اذ يضيق المسجد في الجانب الشمالي. وينقسم المسجد كله إلى خمس بلاطات، اوسعها بلاطة المحراب. واضيقها البلاطة الجنوبية أضيق قليلا في أقصى الحدود مقابل القبلة، واربعة اساكيب[١٢] وبدون صحن.

هناك بروز، يمتد بمقدر ٥,٥٠ متر، خارج الواجهات الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية، وهنا يجب أن نميز الارتفاع الأصلي لجدران المسجد والتي أضيفت في القرن السادس عشر. أرتفاع الجدار الاصلي ٤,١٠م في أعمال الترميم لجدار المسجد تم الكشف عن ثلاثة مداخل ضيقة يتراوح عرض كل منها من ١,١٥م إلى ١,٣م، يتوج كل منها بعقد مدبب على شكل حدوة فرس، ويتراوح ارتفاعها الحالي ٢,٧٩ إلى ٢,٨٨م. توجد هذه المداخل الجانبية على مسافات متفاوتة، دون أدنى علاقة بتوزيع اكتاف بيت الصلاة التي على الاغلب أنها اصلية. مخطط (٢)

يبلغ عرض بعض الاكتاف ٠,٨١م فقط وارتفاعها ٢,٧٠م. وفتحت ثلاثة مداخل في الجدار المقابل لها. اما المدخل الرئيسي فيقع في الجدار المقابل للمحراب، وعلى نفس محور عمق بلاطة بيت الصلاة، و تم الحفاظ على عضادات المداخل الإسلامية بالكامل تقريبًا، تظهر عضاداتها مجموعة مختلطة من الكرانيت والآجر. اما العتبة ترتفع حوالي ٠,٨٠م من على الأرض كتلة من الجرانيت الرمادي كأداة تقويم وتوضع عليها، بالتناوب مع صفين أو ثلاثة صفوف من الآجر، وثلاثة صفوف من الحجر الجيري اصغر حجماً. وفي العضادة الجنوبية الشرقية استخدم حجر مربع ابعاده٠,٢٧م. لوحة (١)

يوضع العقد الصخري المرمم جزئياً، بشكل حدوة الفرس المدبب مباشرة على صخور مختلفة الارتفاع المرتبة بشكل افقي، الشائعة في الإنشاءات الإسبانية من الحجر والآجر، مفقودة في الجزء السفلي من القوس، يتم وضع الآجر ذي الحواف المتوازية بدون مراعاة الترتيب، كما هو معتاد ، مع فواصل بعرض مختلف وبدون الحفاظ على الاتجاه الشعاعي تمامًا.

ومن ناحية أخرى لم تعد المداخل الإسلامية الاصلية على الجدار الشمالي الشرقي ظاهرة ويجب أن تفكر أنه سيكون هناك أيضًا مداخل جانبية إسلامية في الجدار الجنوبي الغربي. [١٣].مخطط (٣)

لازال المسجد يحتفظ ببعض زخارفه الإسلامية لاسيما المحيطة بالمحراب بشكل شرفات متداخلة، والتي تعود إلى الشرق القديم، هي بلا شك إسلامية. يظهر موثقة مرارا وتكرارا في مسجد قرطبة وفي مدينة الزهراء.[١٤] قبل أن نضع لتحليل العناصر الهيكلية في

بيت الصلاة ودراسة جدرانها الخارجية التي يمكن اعتبار أصلها الإسلامي أمراً مؤكداً. تم الحفاظ على المخطط شبه مربّع مع عرض أكثر بقليل من العمق، منحرف قليلاً في شكل شبه منحرف في جانبه الجنوبي، يتكون بيت صلاة من خمس بلاطات، مع أربعة صفوف من العقود بأتجاه القبلة. تتكون الأعمدة في أغلبيتها من قطعتين او ثلاثة قطع، لم تبقى اعمدة ودعامات بيت الصلاة على شكلها الاصلي فقد كان لا بد من تعزيز نظام الدعامات إلى حد كبير عند بناء الأقبية القوطية، ومن نظام الدعائم الخارجية الإسلامية، تم الكشف عن جزء من اثنين من الدعامات في زاوية مقابلة أمام المحراب، والتي ربما تم دمجها في دعامات، اما دعامات الجوانب الشمالية الشرقية تم اكتشافها حتى ارتفاع يصل إلى حوالي ٤.١٥ متر، بعض الدعامات الجنوبية الغربية تم ازالتها[١٥].لوحة(٢) يعتقد توريس بالباس أنه قبل بناء قبو قوطي ، تم هدم الأعمدة الآجرية في بيت الصلاة الموحدي واستبدلت بالأعمدة الحجرية التي لا تزال محفوظة حتى اليوم[١٦].لوحة(٣) بينما يفترض سانتوس أن أعمدة المسجد أعيد استخدامها في الكنيسة ، بنفس القواعد. ومع ذلك، فإن بعض المؤشرات تجعل الافتراض بأن الأعمدة الإسلامية ماتزال في الموقع[١٧] كما تم الكشف عن دعامة اسلامية يبلغ ارتفاع المتبقي منها ٤٨،٠م وعرضها ٥٠،٠م في المنطقة الشمالية الشرقية من بيت الصلاة تتطابق جوانبها الاربعة تمامًا وهي الدعامة الإسلامية الوحيدة التي تم الحفاظ عليها بالكامل مع قاعدتها، اما الاعمدة تسعة من الأعمدة الاثني عشر، قواعدها تشكل هيئة متجانسة يتراوح ارتفاعا بين (٣٥،٠ إلى ٤١،٠ م)[١٨].

المـــحراب

يقع المحراب في الجدار الجنوبي الشرقي بإتجاه القبلة مخططه مستطيل، بعرض يتراوح بين ١,١٥ إلى ١.٢٠ متر ، وفي عمق تشويهها الحالي، حوالي ٠.٧٥ في العمق. ويغطي مكانه، غرفه الخارجية مشطوفة، قبو من دورات الاجر المرتب افقياً، يتم الحفاظ

على جزء من الزخرفة الجصية ، بشكل شرائط مسطحة متداخلة، وهو في حالة سيئة للغاية لوحة(٤)، تعلوه نصف قبة بنيت كلها بالآجر تم تغطيتها بالجص مرة اخرى بعد عملية الترميم[١٩] مخطط(٤) بينما يعطي Ewert وصفاً آخر للمحراب "يتكون من دخلتين يتراوح عرضه بين ٣.٥٤م الى ٣.٥٥م وعمقه ٠.٩٩ إلى ١م" [٢٠] تعلو مربعة المحراب قبة قائمة على عقود حديوية، نصف قطر القبة ٣.٤٠ متر تقريبًا، وارتفاعها ٤,٢٦م فوق الرصيف، استبدلت القبة بقبو على الطراز القوطي بعد تحويل المسجد الى كنيسة وعندما تم رفع القبة، لوحظ أن القبة، كانت في وضع خطر وتم تعزيزها بالدعامات. وعلى اليمين، بجانب المحراب، تم إنشاء غرفة صغيرة، كما هو معتاد في المساجد الإسلامية في الغرب، للحفاظ على المنبر المتنقل وهي مغطاة حالياً [٢١] فتحة مدخلها واسعة نسبياً، كما هو الحال عادة من باب حجرة المنبر في شبه الجزيرة الأيبيرية، تم توثيق حجرة مشابهة لها في المسجد الرئيسي في قرطبة وفي المرية لتخزين المنبر المتنقل، الموجود بجوار المحراب مباشرة[٢٢] في الطرف الشمالي لجدار القبلة، توجد مدخل ضيق ذات مساحة من الطوب غير مضاءة على شكل حدوة فرس عندما تم إجراء إصلاحات في الآونة الأخيرة في الكنيسة، في وسط الجدار الجنوبي الغربي لها، في الجزء السفلي من الجزء الذي يغطيه قبو ضيق، خلف مذبح جانبي، ظهرت بقايا المحراب. اذاً كان هذا جدار القبلة في مسجد ميرتولا. تقع زخرفته المشوهة، إنها تشكل سلسلة من العقود الزخرفية المتتالية المفصصة. لوحة (٥)

إلى الاسفل من العقود ذات الأهمية الكبيرة التي فقد معظمها والتي تستند على أعمدة شبه أسطوانية، تسمح خصائص ما تبقى من المحراب الظاهر للتأكيد على أنه ينتمي إلى مسجد الموحد المتواضع الذي بني بعد(٥٥٢-٥٥٣هـ/١١٥٧-١١٥٨م)، وهو التاريخ الذي استولى فيه الموحدين على ميرتولا، وقبل٦٣٦هـ/١٢٣٨م. يمكن مقارنة زخرفته مع المسجد الكبير في المرية وتخطيط جامع تنمال في المغرب. وفي عهد Sancho II سنة ١٢٣٨م، تم تحويل المسجد الى الكنيسة المسيحية الرئيسية، ووضع المذبح الرئيسي بجانب قوس

المدخل [٢٣]. يحتفظ المتحف الوطني للآثار في لشبونة بقطعة من شريط زخرفي من الغرانيت، لاتزال تحمل سطرين من كتابة. وحسب نيكل، فإن هذه الكتابة تعود لتلك التي تحدث عنها إيستاسيو دا فيغا في "ذكريات عن الآثار القديمة في ميرطولا *Memórias das Antiguidades de Mértola* »". استطاع آرنادور دو لوس ريوس أن يفكك ضمن كلمات السطر السفلي بداية الآية ٢٨ من السورة ٣٦ من القرآن(سورة يس): ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ (مِن جُندٍ)﴾. لوحة(٦) ومعنى النص، بالإضافة إلى كونه محفوراً على واجهة المحراب، يؤكد صلته بمسجد ميرطولا. [٢٤]

المئذنة

تقع المئذنة في الزاوية الغربية للجدار الجنوبي (جدار القبلة) البدن الرئيسي المكعب تماما هو سمة للمئذنة في الغرب الإسلامي. المربعة المقطع .و تقسم إلى قسمين، مكعبين يعلو أحدهما الاخر، وفي القمة مجموعة العقود والتي ربما كانت من الاجر ولها من الداخل درج لولبي يؤدي الى غرفة المؤذن [٢٥]، لوحة (٧)

وتبلغ نسبة العرض إلى الارتفاع تقريباً ١: ٤ إلى ١: ٥. يبلغ طول ضلعها ٤-٥م بينما يبلغ ارتفاعها على الاغلب ١٥ الى ٢٠م بفعل تحويل الجزء العلوي منها الى برجاً للأجراس، يتم تغطية أقل بقليل من الثلث العلوي بشريط أفقي، ويبدو أنه شريط وسطي، يبرز عن سمت الجدار وينتهي في الجانب الجنوبي الغربي. بنيت على قاعدة التي أقيمت عليها بالتأكيد في العصور الإسلامية، كما هو الحال دائمًا في هذا النوع من مآذن الغرب الإسلامي، والجزء العلوي غرفة المؤذن، كهيئة معمارية صغيرة مستقلة، تتراجع من جميع الجوانب، والتي تتوج البرج.

وفي وصف القرن السادس عشر، لا توجد إشارة إلى وجود سقيفة أمام المدخل الرئيسي المفترض للمسجد[٢٦]. لوحة (٨)

المصادر العربية والاجنبية

- الحِميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت: ٩٠٠هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار،المحقق:إحسان عباس الناشر:مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت دار السراج ، ط٢، ١٩٨٠ م عدد الأجزاء:١ .
- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت: ٦٢٦هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ط٢ ، ١٩٩٥ م عدد الأجزاء:٧.
- الادريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي، ت ٥٦٠هـ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت ط١، ١٤٠٩ هـ عدد الأجزاء٢.
- ابن عذارى المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت: نحو ٦٩٥هـ ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب المؤلف(:تحقيق ومراجعة:ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان ، ط٣، ١٩٨٣ م، عدد الأجزاء:٢.
- Torres Balbás, L., « El Mihrab almohade de Mértola », in Revista Al-Andalus, XX, 1955.
- Ewert, Christian., « La Mezquita de Mértola (Portugal) », in Cuadernos de La Alhambra,1987.
- Según L. Chaves, Mértola Cristá Arquivo de Beja 1, 1944,
- MACIAS, Santiago; Torres, Cláudio; BOIÇA, Joaquim; BARROS, Maria de Fátima (2002): Mértola mesquita/Igreja Matriz, Mértola, Edição do Campo Arqueológico de Mértola.
- Gómez-Moreno, Ars Hisp. III, Madrid, 1951, Fig. 68.
- R. dos, Santos (o estilo manuelino, Lisboa 1952).
- L. Torres Balbás, Al-And.v: 18.
- F. Hernández Giménez, Al And.v: 24.

- L. Torres Balbás, EL Mlf.IRAB ALMOHADE DE MERTOLA PORTUGAL, *CRÓNICA ARQUEOLÓGICA DE LA ESPAÑA MUSULMANA, XX XVI*.
- Barros, Boiça e Gabriel, 1996: p212, 318.
- Nykl, A. R., "Arabic inscriptions in Portugal", *Ars Islamica*, XI-XII, 1946.

[١]) الحِميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (المتوفى: ٩٠٠هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار،المحقق:إحسان عباس الناشر:مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت – طبع على مطابع دار السراج ،الطبعة:الثانية، ١٩٨٠ م عدد الأجزاء:١ ص٧٥.

[٢]) ومدينة بطليوس (Badajos) بفتحتين، وسكون اللام، وياء مضمومة، وسين مهملة: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة ، وهي مدينة جليلة في بسيط الأرض وعليها سور منيع وكان لها ربض كبير أكبر من المدينة في شرقيها فخلا بالفتن وهي على ضفة نهر يانة وهو نهر كبير ويسمى النهر الغؤور لأنه يكون في موضع يحمل السفن ثم يغور تحت الأرض حتى لا يوجد منه قطرة فسمي الغؤور لذلك وينتهي جريه إلى حصن مارتلة ومن مدينة بطليوس إلى مدينة قرطبة على الجادة ستة مراحل،حصن مارتلة فيصب في البحر المظلم ومن قلعة رباح إلى قلعة ارلية يومان، ومن مدينة شلب إلى بطليوس ثلاث مراحل وكذلك من شلب إلى حصن مارتلة أربعة أيام ومن مارتلة إلى حصن ولبة مرحلتان خفيفتان، ومن بطليوس إلى اشبيلية ستة أيام ومنها إلى قرطبة ست مراحل وبطليوس من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلاً، وهي حديثة بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليتي(الجليقي) بإذن الأمير عبد الله له في ذلك. الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت: ٦٢٦هـ، معجم البلدان: دار صادر، بيروت ط٢ ، ١٩٩٥ م عدد الأجزاء:٧، ج١، ص٤٤٧.، الادريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي ،ت ٥٦٠هـ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، .(الناشر:عالم الكتب، بيروت ط١، ١٤٠٩ هـ عدد الأجزاء٢، ج٢، ص٥٤٤-٥٤٥، الحِميرى المصدر السابق، ص٩٣.

[٣]) الحِميرى المصدر السابق ، هامش١، ص٥٢١

[٤]) الحموي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٤٢.

[٥]) الادريسي، المصدر السابق ، ج٢، ص٥٤٤

[٦]) ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى: نحو ٦٩٥هـ ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب المؤلف(:تحقيق ومراجعة:ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال الناشر:دار الثقافة، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، ١٩٨٣ م، عدد الأجزاء:٢ ج٢، ص١٣٥.

[٧]) الحِميرى المصدر السابق ، ص٩٣.

[8]) Torres Balbás, L., « El Mihrab almohade de Mértola », in Revista Al-Andalus, XX, 1955, p. 188-195

[9]) Ewert, Christian., « La Mezquita de Mértola (Portugal) », in Cuadernos de La Alhambra,1987, nº 9, 1973, p. 3-36.

[10]) Según L. Chaves, Mértola Cristá Arquivo de Beja 1, 1944, p100. & Ewert, op .cit. p7.

[11]) MACIAS, Santiago; TORRES, Cláudio; BOIÇA, Joaquim; BARROS, Maria de Fátima (2002): Mértola mesquita/Igreja Matriz, Mértola, Edição do Campo Arqueológico de

Mértola. P; 13

[12]) Ewert, op .cit. p12.

[13]) Ewert, op .cit. p12-13.fig. 2

[14]) Gómez-Moreno, Ars Hisp. III, Madrid, 1951, Fig. 68.

[15]) Ewert, op .cit. p15.

[16]) Torres Balbás, Al-And.p 20.

[17]) R. dos, Santos (o estilo manuelino, Lisboa 1952), p:164.

[18]) Ewert, op .cit. p17.

[19]) L. Torres Balbás, Al-And. 20,.

[20]) Ewert, op .cit. p28.

[21]) L. Torres Balbás, Al-And. 18, p418.

[22]) F. Hernández Giménez, Al And. 24, 381.

[23]) L. Torres Balbás, EL Mlf.IRAB ALMohade de Mertola Portugal, Crónica Arqueol de LA Espaňa Musulmana, XX XVI, p26-29.

[24]) Nykl, A. R., “Arabic inscriptions in Portugal”, *Ars Islamica*, XI–XII, 1946, pp. 167.fig; 9

[25]) Barros, Boiça e Gabriel, 1996: p212, 318.

[26]) Ewert, op .cit. p33.